حياة أعظم الرسل

محمَّد يَتزوج خديجَه

مُحَمَّد يَتزوج خديجَه

هِىَ خَدِيجَةُ بِنتُ خُوَيْلِدٍ . وَكَانَت تُسَمَّى الطَّاهِرَةَ قَبلَ الإسلامِ وَبعدَه . وَقَد خَطَبَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُظَمَاءِ فَرَفَضَتْ ، وَقُدِّمَ لَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَالِ فَامتَنَعَت ؛ لِأَنَّهَا كَانَت غَنِيَّةً ، وَلَيسَت فِى حَاجَةٍ إِلَى الْمَالِ . وَلٰكِنَّهَا حِينَمَا خُطِبَتْ لِمُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمِينِ قَبِلَتْ ، وَعَدَّتْ ذٰلِكَ شَرَفًا لَهَا ؛ لِمَا عَرَفَتْ عَنهُ مِنَ النُّبْلِ

وَالْأَمَانَةِ وَالزُّهْدِ فِى الْمَالِ وَالدُّنيا ، وَالطَّهَارَةِ وَالصَّلاحِ وَالتَّقَوى . رَضِيَت خَدِيجَةُ أَن تَتَزَوَّجَ مُحَمَّدًا وَهُوَ فَقِيرُ المَالِ ، غَنِىُّ النَّفسِ ؛ لِعَظَمَتِهِ النَّفسِيَّةِ ، وَالعَقلِيَّةِ ، وَالخُلُقِيَّةِ ، وَشَخصِيَّتِهِ القَوِيَّةِ ، وَصِفَاتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِى وَهَبَهُ اللّٰهُ إِيَّاهَا .

وَكَانَ عُمرُ خَدِيجَةَ فِى ذٰلِكَ الوَقتِ أَربَعِينَ سَنَةً تَقرِيبًا ، وَعُمرُ مُحمدٍ خَمسًا وَعِشرِينَ سَنَةً .

تَأَثَّرَت خَدِيجَةُ بِكَلَامِ مُحَمَّدٍ الْمَملُوءِ بِالْحِكمَةِ ، وَأَخلَاقِهِ الَّتِى لَا مَثِيلَ

لَهَا ، فَأَحَبَّتْهُ بِقَلْبِهَا ، وَفَضَّلَتهُ عَلَى غَيرِهِ مِنَ الْأَغنِيَاءِ . وَتَحَدَّثت عَن حُبِّهَا لِمُحَمَّدٍ مَعَ صَدِيقَةٍ مُخلِصَةٍ لَهَا تُسَمَّى نَفِيسَةَ . فَقَالَت لَهَا نَفِيسَةُ : أُتْرُكِى لِى هٰذَا الْأَمْرَ . ثُمَّ ذَهَبَت نَفِيسَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ الْكَامِلِ الْأَمِينِ الفَقِيرِ ، وَقَابَلَتْهُ ، وَتَحَدَّثَتْ مَعَهُ ، وَسَأَلَتْهُ عَمَّا يَمنَعُهُ مِنَ التَّزَوُّجِ .

فَأَجَابَ مُحمدٌ : لَيسَ عِندِى مَالٌ أَستَعِينُ بِهِ عَلَى الزَّوَاجِ . فَقَالَت لَهُ نَفِيسَةُ : إِذَا دُعِيتَ لِتَتَزَوَّجَ سَيِّدَةً نَبِيلَةً ،

مِن أعظَمِ قُرَيْشٍ شَرَفًا ، وَأكثَرِهِم مَالاً ، تَقَدَّمَ لِزَوَاجِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَغنِيَاءِ ، فَرَفَضَتْ أَن تَتَزَوَّجَ أَحَدًا مِنهُم — فَمَاذا تَقُولُ فِى ذٰلِكَ ؟ فَتَحَيَّرَ مُحمدٌ وَسَأَلَ نَفِيسَةَ : مَن هِىَ ؟ أَجَابَت نَفِيسَةُ : هِىَ خَدِيجَةُ ، صَاحِبَةُ الْمَالِ وَالْجَمَالِ وَالشَّرَفِ وَالأَصْلِ . فَسَأَلَهَا مُحمدٌ : وَلٰكِن كَيفَ أَستَطِيعُ أَن أَتَزَوَّجَ خَدِيجَةَ وَهِىَ غَنِيَّةٌ ، وَأَنَا فَقِيرٌ ؟ فَأَجَابَت نَفِيسَةُ : سَأَحُلُّ أَنَا هٰذِهِ المُشكِلَةَ لَكَ ، فَلاَ تُفكِّرْ فِيهَا مُطلَقًا . فَقَالَ مُحمدٌ : إِذَا استَطَعتِ

أَن تَحُلِّى هٰذِهِ المُشكِلَةَ قَبِلْتُ أَن أَتَزَوَّجَهَا . وَعَلِمَ مُحمَّدٌ أَنَّ خَدِيجَةَ رَفَضَت أَن تَتَزَوَّجَ كَثِيرِينَ مِمَّن تَقَدَّمُوا لِزَوَاجِهَا مِنَ الْأَغنِيَاءِ ، فَكَيفَ يَتَقَدَّمُ إِلَيهَا وَهُوَ مِنَ الْفُقَرَاءِ ؟ وَكَانَ يُعجَبُ بِهَا ، وَيَشعُرُ شُعُورًا رَقِيقًا نَحوَهَا . فَأَرسَلَتْ إِلَيهِ خَدِيجَةُ ، وَقَالَتْ لَهُ ﷺ : يَا ابْنَ عَمِّى ، إِنِّى قَد رَغِبْتُ فِيكَ لِقَرَابَتِكَ ، وَشَرَفِكَ بَينَ قَوْمِكَ ، وَأَمَانَتِكَ وَحُسْنِ خُلُقِكَ ، وَصِدْقِ حَدِيثِكَ . فَخَدِيجَةُ الطَّاهِرَةُ ، اختَارَت مُحمدًا لِصَلاَحِهِ

وَزُهْدِهِ وَكَرَمِ أَخلاَقِهِ ، وَقَد سَمِعَت عَنهُ كَثيرًا مِن قَبلُ ، مِن مَيْسَرَةَ ، وَمَا حَدَثَ فِى رِحلَتِهِ إِلَى الشَّامِ ، وَمَا قَالَهُ الرَّاهِبُ عَنهُ ، فَفَضَّلَتْهُ عَلَى مَن تَقَدَّمَ لَهَا مِنَ الْأَغنِيَاءِ . فَذَكَرَ مُحمدٌ ذٰلِكَ لِأَعمَامِهِ ، فَوَافَقُوا عَلَى أَن يَتَزَوَّجَهَا ، وَأَرسَلَت خَدِيجَةُ إِلَى عَمِّهَا ، وَأَخبَرَتْهُ الخَبَرَ ؛ لِأَنَّ أَبَاهَا كَانَ مَيِّتًا . وَجَاءَ رَسُولُ اللّٰهِ مَعَ بَعضِ أَعمَامِهِ ، وَتَقَدَّمَهُم عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، فِى وَقتٍ مُحَدَّدٍ بَينَ أُسرَتِهِ (عَائِلَتِهِ) وَأُسرَتِهَا ، وَخَطَبَ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ :

الحَمدُ لِلهِ الَّذِى جَعَلَنَا مِن ذُرِّيَّةِ إِبراهِيمَ .... وَجَعَلَ لَنَا بيتًا مَحجُوجًا ، وَحَرَمًا آمِنًا ، وَجَعَلَنَا الحُكَّامَ عَلَى النَّاسِ . ثُمَّ إِنَّ ابنَ أَخِى هٰذَا مُحمدُ بنُ عَبدِ اللهِ ، الَّذِى لاَ يُوزَنُ بِرَجُلٍ إِلاَّ كَانَ أَفضَلَ مِنهُ . فَإِن كَانَ قَلِيلَ الْمَالِ ، فَإِنَّ الْمَالَ زَائِلٌ . وَمُحمَّدٌ مِمَّن عَرَفتُم قَرَابَتَهُ . وَقَد خَطَبَ خَدِيجَةَ بِنتَ خُوَيلِدٍ ، وَأَعطَاهَا الْمهرَ كَذَا وَكَذَا . وَلَهُ فِى خَدِيجَةَ رَغبَةٌ . وَلَهَا فِيهِ رَغبَةٌ . وَهُوَ وَاللهِ بَعدَ هٰذَا لَهُ مُستَقْبَلٌ عَظِيمٌ ، وَمَركَزٌ جَلِيلٌ .

فَلَمَّا أَتَمَّ أَبُو طَالِبٍ الْخُطْبَةَ تَكَلَّمَ وَرَقَةُ
ابنُ نوفَلٍ — وَهُوَ ابنُ عَمِّها — فَقَالَ :
الحَمدُ لِلّٰهِ الَّذِى جَعَلَنَا كَمَا ذَكَرْتَ ،
وَفَضَّلَنَا عَلَى مَن عَدَدْتَ . فَنَحنُ سَادَةُ
الْعَرَبِ وَقَادَتُهَا (رُؤُسَاؤُهَا) . وَأَنتُم
أَهلُ ذٰلِكَ كُلِّهِ . لاَ يُنكِرُ أَحَدٌ فَضْلَكُم
وَشَرَفَكُم . وَقَد رَغِبْنَا فِى الاتِّصَالِ
بِأُسْرَتِكُم وَشَرَفِكُم ، فَاشهَدُوا عَلَىَّ
يَا كِبَارَ قُرَيشٍ — أَنِّى قَد زَوَّجْتُ خَدِيجَةَ
بِنتَ خُوَيلِدٍ ، مِن مُحمدِ بنِ عَبدِ اللهِ ،
بِمَهْرِ كَذَا . فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : أُحِبُّ أَن

يَشترِكَ عمُّهَا مَعَكَ . فَقَالَ عمُّهَا : اِشهَدُوا يَا كِبَارَ قُرَيشٍ أَنِّى قَد زَوَّجتُ مُحمدَ بنَ عَبدِ اللهِ خَدِيجَةَ بِنتَ خُوَيلِدٍ ، وَشَهِدَ عَلَى ذٰلِكَ كِبَارُ قُرَيشٍ .

وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَبَاهَا لَم يَحضُرْ ؛ لِأَنَّهُ مَاتَ قَبلَ ذٰلِكَ بِمُدَّةٍ . وَلَمَّا تَمَّ الْأَمرُ ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ لِيَخْرُجَ ، فَقَالَت لَهُ السَّيِّدَةُ المُحْسِنَةُ : إِلَى أَينَ أَنتَ ذَاهِبٌ يَا مُحَمدُ ؟ اِذهَبْ وَاذبَحْ جَمَلاً أَو جَمَلَينِ، وَأَطْعِمِ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ . وَقَد سَرَّ اللهُ عَينَهُ بِهٰذَا الزَّوَاجِ ، وَكَانَ

سَعِيدًا فِى حَيَاتِهِ الزَّوجِيَّةِ . وَفَرِحَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ بِزَوَاجِ مُحمدٍ فَرَحًا شَدِيدًا ، وَحَمِدَ اللهَ حَمْدًا كَثِيرًا . وَإِنَّ السَّيِّدَةَ خَدِيجَةَ هِىَ أَوَّلُ زَوجَةٍ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ . لَم يَتَزَوَّجْ قَبلَهَا وَلاَ عَلَيهَا حَتَّى مَاتَت . وَكَانَ زَوَاجُهُمَا مُوَفَّقًا ، كُلُّهُ وَفَاءٌ وَإِخلاَصٌ . وَقَد وَلَدَت لَهُ أَولاَدَهُ جَمِيعًا .

أَولاَدُهُ مِن خَدِيجَةَ :

هُم : الْقَاسِمُ وَعَبدُ اللهِ ، وَزَينَبُ وَرُقَيَّةُ وَأُمُّ كُلثُوم وَفَاطِمَةُ . أَمَّا إِبرَاهِيمُ فَقَد كَانَ

مِنَ مَارِيَةَ القِبْطِيَّةِ . وَقد مَـاتَ أَولاَدُهُ جَمِيعُهُم فِى حَيَاتِهِ ، وَلَم يَبْقَ إِلاَّ السَّيِّدَةُ فِاطِمَةُ . وَقَد كَانَت خَدِيجَةُ أَوَّلَ مَن آمَنَ بِالمُصْطَفَى ﷺ . وَسَاعَدَتِ الرَّسُولَ كُلَّ المُسَاعَدَةِ بِمَالِهَا وَنَفسِهَا فِـى أَدَاءِ رِسَالَتِهِ . وَقَد شَجَّعَتْهُ كُـلَّ التَّشجِيـعِ عِندَمَا نَزَلَ عَلَيهِ المَلَكُ جِبرِيـلُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَوَقَفَت بِجَانِبِهِ تُعَاوِنُهُ وَتَنصُرُهُ ، وَتُطَمْئِنُهُ وَتَقُولُ لَهُ : وَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا إِنَّكَ تَعطِفُ عَلَى الأَقَارِبِ ، وَتَتَّصِلُ بِهِم ، وَتَصدُقُ فِى كُـلِّ مَـا تَقُـولُ ،

وَتُسَاعِدُ الْيَتِيمَ وَالْفَقِيرَ وَالْمُحتَاجَ ، وَتُحسِنُ إِلَى الضَّيفِ وَتُكْرِمُهُ ، وَتُدَافِعُ عَنِ الْمظَلُومِ ، وَتَقِفُ بِجَانِبِ الْحَقِّ وَتَتَمَسَّكُ بِهِ .

وَكَانَت خَدِيجَةُ أَحسَنَ مَثَلٍ لِلزَّوجِ (لِلزَّوجَةِ) الْأَمِينَةِ ، الْمُحْسِنَةِ الْمُخْلِصَةِ ، وَأَحسَنَ مَثَلٍ لِلشَّرِيكَةِ الْمُحِبَّةِ الْمُتَعَاوِنَةِ . رَأَتْ مَا حَدَثَ لِلرَّسُولِ مِن إِيذَاءٍ ، وَمَا حَدَثَ لِأَصحَابِهِ مِن تَعذِيبٍ ، فَكَانَت أَعْظَمَ مُسَاعِدَةٍ لِلْمُصطَفَى فِى أَدَاءِ رِسَالَتِهِ ، وَنَجَاحِ

دَعوَتِهِ إِلَى دِينِ الْحَقِّ ، دِيـنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَم يَتَزَوَّجْ رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ غَيرَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ حَتَّى اختَارَهَا اللهُ وَتُوُفِّيَتْ (مَـاتَتْ) ، فَتَـزَوَّجَ بَعدَهَـا السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ أُمَّ المُؤمِنِينَ ، بِنتَ صَدِيقِهِ وَحَبِيبِهِ أَبِى بَكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِىَ اللهُ عَنهُ . وَقَدِ اعتَادَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَن يَذكُـرَ خَدِيجَةَ بِكُلِّ خَيرٍ طُولَ حَيَاتِهِ ، حَتَّـى كَانَت عَائِشَةُ تَغَارُ مِنهَا . وَقَـد قَـالَتْ عَائِشَةُ فِى حَدِيثٍ لَهَا : « ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ خَدِيجَةَ فِى يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ فَأَخَذَتْنِـى

الْغَيْرَةُ ، فَقُلتُ لَهُ ﷺ : هَل كَانَت إِلاَ عَجُوزًا قَد أَبْدَلَكَ اللهُ خَيرًا مِنهَا ؟

فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ — عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ — وَقَالَ : « لاَ وَاللهِ ، مَا أَبْدَلَنِى (لَم يُبْدِلْنِى) خَيرًا مِنهَا . فَقَد آمَنَتْ بِى إِذْ (وَقتَ أَن) كَفَرَ النَّاسُ (بِى) . وَصَدَّقَتْنِى إِذْ كَذَّبَنِى النَّاسُ . وَوَاسَتْنِى (سَاعَدَتْنِى وَشَارَكَتْنِى) فِى مَالِهَا إِذْ حَرَمَنِى النَّاسُ ، وَرَزَقَنِى اللهُ مِنهَا الوَلَدَ دُونَ غَيرِهَا مِنَ النِّسَاءِ » .

وَقَد كَتَبَ (تُومَاس كَارْلَيْل)

الكَـاتِبُ الْإنجِلِيـزِىُّ ، وَالْمُصلِـحُ الاِجتِمَاعِىُّ فِى كِتَابِهِ : « الأَبطَالُ وَعِبادَةُ الأَبطالِ » فَصلاً عَن مُحمدٍ العَظِيمِ ، ذَكَرَ فِيهِ مَا مَعْنَاهُ أَنَّ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ قَالَتْ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ : أَنَا أَصغَرُ وَأَجمَلُ مِـن خَدِيجَةَ ، فَهَل تُحِبُّنِى أَكثَرَ مِنهَا ؟ فَأَجَابَ عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ : لاَ وَاللهِ ؛ فَقَد آمَنَت بِى أَذ كَفَرَ النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِـى إذ كَذَّبَنِى النَّاسُ ، وَوَاسَتْنى فِى مَالِهَا إذ حَرَمَنِى النَّاسُ .... »

وَقَد كَتَبَ (كَارْلَيْلُ) تَعلِيقًا عَلَـى

إِجَابَةِ الرَّسُولِ وَقولِهِ : (لاَ) لِزَوْجَتِهِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ ، وَقَالَ مَا مَعنَاهُ : إِنَّ مُحَمَّدًا قَد أَغضَبَ زَوْجَتَهُ الْحَيَّةَ فِى سَبِيلِ إِرضَاءِ زَوجَتِهِ المَيِّتَةِ وَهِى خَدِيجَةُ. وَمَن زَوجَتُهُ الحَيَّةُ ؟ إِنَّهَا عَائِشَةُ بِنتُ صَدِيقِهِ أَبِى بَكرٍ الصِّدِّيقِ ، الصَّغِيرَةُ السِّنِّ ، الفَائِقَةُ الْجَمَالِ . إِنَّ الإِنسانَ الَّذِى يُجِيبُ بِمَا أَجَابَ بِهِ مُحمدٌ يُعَدُّ مُخلِصًا إِخلاَصًا لاَ مَثِيلَ لَهُ بَينَ بَنِى الْإِنسَانِ . وَيُعَدُّ إِنسَانًا غَيرَ طَبِيعِيٍّ » .